الاختلاف يولّد الاختلاف

البنى الاجتماعيّة الأوليّة والموازية في مدينة الصدر

د. عدنان صبيح ثامر

مراجعة وتقديم
د. علاء حميد - د. أسامة الشبيب

الاختلاف
يولّد الاختلاف

البنى الاجتماعيّـة الأوليّة
والموازيّة في مدينة الصدر

REWAQ BAGHDAD
center for publicy policy
dar@rewaqbaghdad.org
www.rewaqbaghdad.org
07835774081
بغداد / العرضات

٣٠٥,٩٥٦٣
ث ٢٨٤ ثامر ، عدنان صبيح
الاختلاف يولد الاختلاف / عدنان صبيح ثامر
١- ط ١ . - بغداد : دار الرواق ، ٢٠٢٦
(٢١٦) ص ، (١٤,٥ × ٢٢,٥) سم
١-العراق (بغداد - مدينة الصدر) - الأحوال الأجتماعية
-أ - العنوان .
رقم الايداع ٣٨٢ / ٢٠٢٦

دار ومكتبة الرواق

مركز رواق بغداد للسياسة العامة

عنوان الكتاب: الاختلاف يولّد الاختلاف
البنى الاجتماعيّة الأوليّة والموازيّة في مدينة الصدر

تأليف:

د. عدنان صبيح ثامر

الطبعة الأولى: ٢٠٢٦

ISBN: 978-9922-8133-7-0
رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق (٣٨٢) لسنة ٢٠٢٦

جميع الحقوق محفوظة لدار ومكتبة الرواق
يمنع نسخ أو أستعمال الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو أية وسيلة نشر أخرى من دون إذن خطي من الناشر

Legal Note:
Publishing this material has been funded by Rewaq Baghdad Center of Public Policy; however the views expressed in this document do not reect the Center's offcial policies nor its opinions.

دار ومكتبة الرواق

الاختلاف يولّد الاختلاف

البنى الاجتماعيّة الأوليّة والموازيّة في مدينة الصدر

د. عدنان صبيح ثامر

الفهرس

إهداء ٧
تقديم..... ٩
المقدمة..... ١٥

الفصل الأول
الإطار النظري والمنهجية ٢٣
منهج الدراسة: ٣٥
بؤرة ثقافية Cultural Focus : ٤٣
مدينة الصدر بوصفها مجتمعاً محلياً: ٤٨
مجال الدراسة المكاني: ٥٠

الفصل الثاني
القرابة والعشيرة ٥٣
(روابط دمويّة وتحالفات) ٥٣
البناءات البديلة (الاختلاف يولّد الاختلاف):..... ٧٩
الخلاصة:..... ٨٧

الفصل الثالث
البؤرة الثقافيّة الدينيّة..... ٨٩
بناءات المسجد: ٩٣

مساجد خارج (البؤرة الثقافية): ١٠٧
(الطقس) البؤرة الثقافية الدينية: ١١٠
المجتمع الطقوسي: ١١١
شهر محرم: ١١٥

الفصل الرابع

السوق بيئة اجتماعيّة متكيفة مع العادات ١٢٧
الأسواق النسائيّة: ١٣٨
أسواق المحلة: ١٤١
(مريدي) سوق الرجال المركزيّ: ١٥١
قصة مريدي ١٥٢

الفصل الخامس

العلاقة بين الأفراد في مدينة الصدر والنظام السياسيّ ١٦٣
الثقافة السياسية: ١٧٣
مؤشرات دارسة الثقافة السياسية: ١٨٣
الخلاصة: ٢٠٥
الخاتمة ٢٠٧
المراجع ٢١١

إهداء

«إلى المدينةِ
التي تُكافئُ أبناءَها بالحماية،
وترافقُ من غادر بالذاكرة»

تقديم

رواق بغداد للسياسات العامة – البيدر للدراسات والتخطيط

تحظى الدراسات الاجتماعيّة بأهمّيّة بالغة، لما تكشفه من ملامح ومكنونات المجتمعات وطبقاتها وأنماط سلوكها وثقافتها أو تقاليدها وطبيعة العلاقة والروابط التي تحكم دورة الحياة العامة فيها. وأصبحت الأبحاث والجهود العلمية في الحقل الاجتماعيّ كالفحص المختبريّ الكاشف عن حالة الأفراد أو المجتمع بوصفه جماعة، وهذا الفحص والتحليل الاجتماعيّ يساعد في بناء فهم سليم عن المجتمع وطبيعة أفراده من جهة، ومن جهة أخرى يوفر مادة مهمة للقائمين على شؤونه العامة في تحديد طرق التعامل والسلوك المناسب إزاءه، وهذا يتطلب بالتأكيد رصداً مستمراً يواكب كلّ عملية تغيير وتبدل وتحول اجتماعيّ.

وعلى الرغم من الجهود العلمية التي بذلت في دراسة المجتمع العراقيّ وفهمه فإن ثمّة حاجة لدراسات وأبحاث أكثر عمقاً وشمولية لسبر أغوار المجتمع العراقيّ، ولا سيما حقبة التسعينيات وما تلاها من تغيير عام ٢٠٠٣ وما رافقه من تحولات اجتماعية وسياسيّة وثقافية وغيرها.

وقد كشف تغيّر النظام السياسيّ عام ٢٠٠٣ عن ضرورة مراجعة كثير من المسلمات الاجتماعيّة والسياسيّة التي تبلورت عن العراق منذ قيام الدولة العام ١٩٢١؛ إذ بُنِي نموذج الدولة والمجتمع على أساس

تصوّر خارجيّ جاء نتيجة متغيّرات وتحالفات دَوليّة واقتصاديّة لتقسيم المنطقة، فالعراق بالنسبة لبريطانيا كان ضمن مجال صراع بين رؤيتين: (مكتب الهند، ومكتب القاهرة)، وعلى الرغم من أن اكتشاف العراق وأهمّيّة موقعه؛ جاء عبر مكتب الهند فإنّ الرؤية السياسيّة لمكتب القاهرة هي التي انتصرت في تكوين النظام السياسيّ وبنائه في العراق منذ ١٩٢١ – ١٩٥٨، وطوال المرحلة الملكيّة بقي الفهم عن العراق محكوما بمعنى الدولة وقدرتها على صياغة متطلبات النموذج العراقيّ.

والفهم المتقدم قد غيّب فهم التشكيلات الاجتماعيّة، وأنتج تصورا غير مكتمل عن المجتمع والدولة، ولهذا جاءت مذكرة الملك فيصل الأول العام ١٩٢٣ لتؤشر هذا الخلل؛ إذ إنّ محتوى المذكرة لم يضع الدولة هي العتبة الأولى لتفسير ما يجري آنذاك في العراق، وقد تمثّل الخلل في عدم تشكل ملامح واضحة للمجتمع تصوغ هويته وطابعه المميز، فظلّت القضيّة العراقيّة يعوزها البحث عن مجتمع يريد دولة، ونظام سياسيّ يعبر عن هذا المجتمع.

بعد ذلك جاء تغيير عام ١٩٥٨ الذي تخطّى المجتمع ودوره في تشكيل النظام السياسيّ، واكتفى بالمؤسسة العسكرية مصدراً للشرعية، وتكرّر تخطّي المجتمع مرة أخرى مع مجيء البعث للسلطة عبر التحالف بين الحزب والجيش؛ لذا فإن التأمل في مسار التغيير في العراق يترك انطباعا بضعف فاعلية المجتمع أو يجعله خارجاً عنها في مجريات هذه التغيرات ١٩٢١-١٩٥٨-١٩٦٣.

من هنا ينشأ السؤال: ما ملامح المجتمع العراقيّ وسماته؟ وما زالت الإجابة عن هذا السؤال محلّ نقاش وجدل بين أهل الاختصاص

وغيرهم لأسباب كثيرة، لكن يمكن القول إنه لغاية ستينيات القرن الماضي مع ظهور كتاب على الورديّ ١٩١٣-١٩٩٥ «دراسة في طبيعة المجتمع العراقيّ» وذلك في عام ١٩٦٥ الذي فتح الباب أمام أهمّيّة البحث والتأمل في المجتمع العراقيّ وطبيعته وصفاته وخصائصه، وفي هذا السياق أخذت دراسة المجتمع العراقيّ طريقاً مختلفا يتركب بين علمي الاجتماع والتاريخ، وينطلق من فرضيات بحاجة إلى مراجعة وتحليل؛ لأنّ هذه الآراء والفرضيات لابدّ أن تأخذ بنظر الاعتبار معنى التغيّر الاجتماعيّ الذي مرّ به المجتمع العراقيّ، وهو تغيّر مسّتمرّ؛ إذ وصفه بعض الباحثين بالتحوّل؛ لأنّه لم يكن مجرد تغيّر طفيف؛ بسبب ما فيه من تشكيلات وبناءات اجتماعيّة ذات سمات تقليدية وحديثة تجاوزت مفاهيم العشيرة مع الحزب والطائفة مع القومية.

هذا الجمع بين التقليديّ والحديث أدخل المجتمع العراقيّ في تناقض تجلّى في استمرار غياب التصوّر المحدّد عن المجتمع وما فيه من ملامح تحوّل وتغيّر، ومع الدكتور الورديّ تشكلت قناعة أو رؤية أن المجتمع العراقيّ هو نتاج أو تأثير ثلاثة موجهات اجتماعيّة مركزية: صراع البداوة والحضارة، والتناشز الاجتماعيّ، وازدواجية الشخصية. وبات من الشائع والمسلم به أنّ هذه الموجهات هي المفسّر الأساس لما يجري في المجتمع العراقيّ، وتحوّلت بمرور الوقت إلى مقولات شعبية يتم تداولها في أحاديث العراقيّين، ومن جانب آخر أصبح المنظور القوميّ منذ عام ١٩٦٨ مهيمنًا على البحث في المجتمع العراقيّ، وتكريس مفهوم القوميّة كإطار نظريّ وتحليليّ للمتغيرات التي يتعرض بها هذا المجتمع؛ ولذلك طغى هذا المفهوم في تلك الحقبة.

رسمت مقولات الورديّ صورة المجتمع العراقي وطبيعة ملامحه،

وبقيت حاضرة بقوة لدى الباحثين وغير الباحثين في التعريف أو وصف الحالة العراقيّة سواء أكان ذلك على مستوى المجتمع أو الفرد والشخصية. وعلى الرغم من ظهور مشاريع اجتماعيّة كمشروع «حنا بطاطو» عن المجتمع العراقيّ الذي امتد لعشرين عاما، فإنّ مقولات الورديّ بقيت مؤثرة؛ إذ مثّلت لدى الكثيرين سلطة معرفيّة حاكمة لكلّ عمليّة فهم وقراءة للمجتمع العراقيّ. وهذه الجهود العلميّة والاجتماعيّة مهما تكرّست في الواقع تظلّ في النهاية فكراً ونظريّة خضعت لمحددات وعوامل سياقيّة تاريخيّة واجتماعيّة وسياسيّة، وإن الحاجة المعرفيّة لمراجعة تلك الجهود وفحصها في المختبرات العلميّة أمراً لا محيص عنه، إذا ما أخذنا في الاعتبار حجم التغيّر والتحوّل المستمرّ الذي رافق المجتمع العراقيّ، بدخول عوامل مختلفة ومؤثّرة على الحياة الفرديّة والاجتماعيّة. وعلى ذلك يبقى سؤال: ما مدى قدرة تلك الفرضيات والمقولات على تفسير المتغيرات التي مرّ بها المجتمع العراقيّ لاسيما في جوانبها السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافية؟

إنّ نطاق الدراسة التي بين أيدينا كان حول «مدينة الصدر»[1] التي تقع في شرق العاصمة بغداد، وهي تعبر عن نموذج اجتماعيّ كاشف بنسبة غير قليلة عن المجتمع العراقيّ كالعينة التحليلية في الجسم، وذلك لما فيها من بناءات وتشكيلات اجتماعيّة متميزة ومهمة في الوقت نفسه. وقد اعتمدت الدراسة على «المنهجية الأنثروبولوجية» التي تقوم على الإقامة البحثية الميدانية وتوظيف الملاحظة المشاركة من أجل الوصول

(١) سُميت بهذا الاسم بعد عام ٢٠٠٣ نسبةً إلى المرجع الديني الشيعي محمّد محمّد صادق الصدر، وكانت تسمى مدينة الثورة سابقاً وهو نسبة إلى «ثورة» عبد الكريم قاسم عام ١٩٥٨ الذي أمر بإنشاء المدينة.

إلى النمط الثقافي والاجتماعيّ الحاكم على تصوّرات أفراد المجتمع، ومع وجود العشيرة والجماعة والتشكيلات السياسيّة أخذت الدراسة ترصد وتحلل السمات الاجتماعيّة للعلاقات والتفاعل وموجهات السلوك، ولذلك تمثل هذه الدراسة محاولة ومنطلقاً لما بعد الورديّ ودراساته الاجتماعيّة، لأنها لم تغفل اختبار فرضيّاته الاجتماعيّة التي تبناها في مجمل الدراسات والأبحاث التي قام بها عن المجتمع العراقيّ، لكنها لم تجمد عليها بوصفها نموذجا معياريّا وحيدا لفهم الظاهرة الاجتماعيّة العراقيّة وتحليل سماتها المتغيرة.

وبناء على ما تقدّم عمل مركز رواق بغداد للسياسات العامة ومركز البيدر للدراسات والتخطيط، على مشروع طموح لدراسة المجتمع العراقيّ، على وفق مراحل متعددة وعلى مساحات جغرافيّة وسكانيّة متنوّعة، على أمل أن تتجلّى في نهاية المشروع -إذا ما كتب له التوفيق- ملامح أساسيّة عن المجتمع العراقيّ، والكشف عن حجم التغيّرات والتحوّلات التي مرّ بها، مع الأخذ بنظر الاعتبار فحص المقولات المكررة عن الحالة الاجتماعيّة العراقيّة.

وقد قام المركزان: (الرواق والبيدر) بالمتابعة والإشراف على هذا المشروع الذي امتد لأكثر من سنة، سواء أكان ذلك في مجاله العلميّ والبحثيّ أم الميدانيّ والعمليّ، ونأمل أن تكون هذه الخطوة والدراسة منطلقاً لمشروع أوسع لأبحاث ودراسات اجتماعيّة عراقيّة لاحقة تشمل مدن ومساحات اجتماعيّة وسكانيّة متنوّعة تسعى لتقديمِ تصوّرٍ علميّ مبنيّ على فهم وتحليل عن المجتمع العراقيّ وملامحه المميزة لطبيعته على مستوى الفرد والمجتمع.

في الختـام لا يسـعنا إلّا أن نتقـدم بالشـكر والثنـاء الجميـل للدكتور (عدنان صبيح ثامـر) الذي عمل بجهد ومثابرة في إنجاز هذا المشروع، والشكر موصول لكلّ الفريق من الباحثين والعاملين الذين ساعدوا في المعطيات والإحصاءات الميدانية لإتمام هذا الكتاب.

د. أسامة الشبيب
المدير التنفيذي لمركز البيدر للدراسات والتخطيط

د. علاء حميد إدريس
عضو مجلس إدارة مركز رواق بغداد

المقدمة

تقوم المجتمعات المحليّة برسم صورتها ونمط علاقاتها العامّة من خلال مجموعة من الآليات (الميكانزمات) التي تضيق وتتسع استناداً إلى درجة تمثيل تلك العلاقات للمجتمع ومدى ارتباطها بأهدافه، وتساعد هذه الآليات على صياغة سياق مميّز يبقي تلك المجتمعات حيّة ومكتفية ذاتياً، سواء عبر بُناها الأصيلة أو عبر بُنى تكيُّفية تضطرها الحاجة إلى إنتاجها.

ولا يمكن فهم مجتمع معين من غير الإحاطة بالعناصر المكونة له؛ فطبيعة أيّ مجتمع هي انعكاس لعناصره، وهذه الأجزاء (العناصر) هي التي تصنع سياقه الاجتماعيّ وبنيته العميقة التي تُسيّره، وبمجرد التعرف على تلك العناصر، تصبح طبيعة العلاقات الداخليّة والخارجيّة واضحة ومُفسَّرة.

وبطبيعة الحال، عند التوجه لدراسة (مدينة الصدر) في بغداد بوصفها مجتمعاً محليّاً، يحمل قدراً من التعقيد؛ يتمثّل في أنّ الجماعة في المدينة هي جماعة اجتماعية ذات تركيبات دينيّة تتوائم مع المجتمع المحليّ، وتتكيف مع عناصرها الدينيّة لتنتج بناءات موازية لبناءات الجماعة، بل ومتناقضة معها أحياناً.

وبما أننا نتحدث عن مجتمع مُركّب بين الجماعة الدينيّة والجماعة الاجتماعيّة، فإنّ فرص التكيف وإنتاج تلك البُنى الجديدة لم يقتصر على البنية الاجتماعيّة فحسب، بل شمل البناءات جميعها، وأبرزها الدينيّة التي لم تكن بمعزل عن فرص التكيف، إذ تسعى البنية الدينيّة إلى أن تكون أحد عناصر الحماية، فتُنتِج بُنى ترتبط بالمجتمع

وتوفر له أدوات يستطيع من خلالها النسق الدينيّ أن يكون بديلاً عن الأنساق الأخرى كالقرابية أو السياسية.

ولذلك، اتجهت الدراسة إلى فهم القيم الاجتماعية في مدينة الصدر عن طريق البؤرة الثقافية(Cultural Focus)، والبؤرة الثقافية بحسب العالم الأنثروبولوجي (هيرسكوفيتز)، هي ميل اهتمامات شعب معين إلى التركز على مظهر خاصّ من مظاهر ثقافته؛ لأنّها تهتم بإبراز بعض النظم أكثر من غيرها، وتهتم الدراسات التي تتناول الثقافة بكاملها بدراسة بؤرها الثقافيّة، كونها محط التغير الاجتماعيّ، خصوصاً في المجتمعات التي تشهد تغيراً مستمراً، أو المجتمعات التي لا تضع حاجزاً أمام محاولات التغيير، إذ يتم تغيير بناءاتها من خلال بؤرها الثقافية.

فقد يواجه الباحثون في دراستهم الاجتماعيّة مشكلة عدم وضوح بعض العادات في الممارسات اليوميّة، وعناصره المحفزة للتغيير؛ إذ تتوائم الممارسات العادية مع تسيير البناءات بطريقة متوازنة، لا تنغصها الاحتكاكات المرتبطة بالتغيير، أو مشكلات تغيير هويتها، بينما يمكن الوقوف على العادات المهمّة من خلال البؤر الثقافيّة التي تمثّل الاحتكاك الأعلى والاختبار المستمر للهوية الاجتماعيّة، فهي مصد التغيير لهيمنتها على السياق الاجتماعيّ من جهة، وبوابة تغييره من جهة أخرى.

إنّ هيمنة البؤر الثقافيّة في المجتمع المحليّ تتيح الممارسات فيه إبراز العادات والقيم وبصورة واضحة، وتعطيه القوة في تشكيل تلك العادات وفق رؤية تتكون داخل البؤرة الثقافية يتطلبها الاحتكاك المستمر مع المجتمع داخليّا، وخارجيّا، ومن أبرز تلك التشكيلات

هـو إنتاج بنـاءات قائمة على أسـاس تكيف البؤرة بوصفهـا معبرة عن المجتمع، ويتم قبولها مجتمعيا بوصفها صادرة من البؤرة الثقافيّة.

وعند الحديث عن الانسـاق المهمّة المشـكلة للبنـاء الاجتماعيّ في مدينة الصدر فإنّ البنى القرابية تمثّل النسق الأهمّ إلى جانب النسق الدينيّ والاقتصاديّ ثم يشـارك النسـق السياسـيّ في الارتبـاط وإنتاج علاقات متوازنة مع الانساق الأخرى.

لقـد سـمحت الأصـول الفلاحيّـة لأهالـي مدينة الصـدر — بما تمتلكـه تلـك البيئـة مـن قـدرة علـى التكيـف ومرونـة فـي التكويـن والتشـكيل— ببـروز بناءات جديـدة، وهذا هو الفـارق الجوهريّ بين أبنـاء البيئة الفلاحيّـة وأبناء البيئـة البدويّة؛ حيث يغير البـدويُّ المكان ولا يغير (البناء)؛ لأنّه يمثّل الثيمة الأساسيّة له، بينما يمتلك البناء لدى الفلاح قابلية التغيير والتكيف؛ لأنّ الثيمة الأساسيّة لديه هي (المكان).

وبمـا أنّ الاسـتقرار أساسـه الحمايـة، وبالعـودة إلـى الأصـول الفلاحيّة، نجد أنّ الأفراد يبحثون عن الحماية داخل البُنى الاجتماعيّة؛ إذ إنّ الهـدف الجوهريّ لهـذه البُنى هو توفير الأمـن لأفرادها، وإذا ما ضعفـت قدرة البنـاء التقليديّ علـى توفير تلك الحمايـة، ترتفع فرص التكيـف لإنتـاج بنيـة جديـدة تتبنـى الأهـداف ذاتهـا، ولكن بوسـائل وأشكال مستحدثة.

وتسـعى البُنـى القرابية إلى إنتـاج بناءات موازيـة لمعالجة انفراط عقـد أبنائهـا، لتمثّل هذه البنـاءات الشـكل الجديد للمدينـة المتغيرة، والسـاعية إلـى تحـولات تحمـل المعانـي الأولـى لكن بقوالـب أكثر توافقـاً مع الأوضـاع المتجددة، وينطبـق الامر على البـؤر الدينيّة التي يمثّل المسـجد الجانب المركـزيّ فيها، فهناك تُرسـم العلاقات داخل

النسـق الدينيّ وتوزيع العلاقات تسيرها المنافسة مع البناءات الأخرى (القرابيّـة والسياسـيّة)، إذ تتفـرع تلـك العلاقـات نحـو مفاصل داخل البنـى الاجتماعيّـة الأخـرى، للحصول علـى أدوار أكبـر، بينما تحرك العـادات الجانب الاقتصـاديّ، وتواجه العادات الازمـات الاقتصاديّة بإعادة تشـكيل الأسواق، لذلك تتعرض الأسـواق كبؤرة اقتصاديّة في مدينة الصدر إلى تغيّر مسـتمر، يميل إلـى التوازن ما بين الازمات التي يوجهونهـا وبيـن عاداتهم التـي يجتهدون فـي المحافظـة عليها، وفي الجانب السياسـي تواجه مدينـة الصدر وضعا مختلفـا إذ تبدو العلاقة بين النظام السياسيّ والمجتمع المحلي (التقليديّ) علاقة مركبة قائمة علـى المصالح التي يوفرها النظام السياسـيّ، وفـي المقابل فإنّ النظام السياسيّ يحتاج إلى اعتراف من ذلك المجتمع.

وعلـى ذلـك ترتسـم تلك العلاقة مـن خلال عدد مـن الإجراءات يحـاول فيها النظام السياسـيّ تعزيـز وجوده أو علاقاته مـع المجتمع، وأبرزها: (التنشـئة السياسـيّة، الطقس السياسـيّ، الفعاليات السياسيّة، التواصـل السياسـيّ، الفاعلـون السياسـيون، التنميـة السياسـية، القوة والنفوذ السياسيّ).

وعلـى الرغـم من أنّ تلك الإجـراءات مترابطة إلى حدّ كبير، وأن ضعـف إحداهـا يحـرم النظام السياسـيّ من ممارسـة الأخريـات، إلا أنّ البحـث فـي تلك الإجـراءات يوضـح العلاقة بين النظام السياسـيّ والمجتمع المحليّ في مدينة الصدر.

وتأسيساً على ما تقدّم تحاول الدراسة فهم البُنى الاجتماعيّة داخل مدينـة الصـدر التي مـن خلالها يمكن تفسـير العلاقات التي تُسـيّرها، وقِيَمهـا وعاداتهـا، والمحـركات الكامنـة وراء تلك القيـم والعادات،

عبر الملاحظة المباشرة والملاحظة بالمشاركة كأدوات عمل ميدانيّ للأنثروبولوجيا، ونظراً لكبر المدينة وتعقيد تعاملاتها المتداخلة بين الدين والعشيرة والاقتصاد، فلا يمكن للمرء أنْ يقف على سلوكيّات معينة ويربطها ببنية واحدة محددة، فضلاً عن ذلك فإنّ هناك عادات لا تظهر بصورة مستمرة؛ لعدم وجود المحفزات اليوميّة، فهي مُهملة في الحياة اليوميّة إلا أنّ لها شأناً كبيراً في أحداث أو فعاليات معينة.

نشأت فكرة هذا الكتاب حين التقت رغبة (مركز رواق بغداد للسياسات العامة) و(مركز البيدر للدراسات والتخطيط) في دراسة المجتمع العراقي، واستقصاء التحولات التي طرأت عليه نتيجة المتغيرات السياسية والاقتصادية والديموغرافية؛ وقد تزامنت هذه الرغبة مع انهماكي كباحث في إيجاد مقاربة لتفسير التحول في المواقف والأفكار الاجتماعية، وكيفية التعاطي المجتمعي مع الأحداث عموماً، فضلاً عن رغبتي في العودة إلى مدينتي (مدينة الصدر)، التي أحاول الرجوع إليها كباحث شاهدٍ على سياقاتها السابقة، وراصدٍ للتغيرات التي طالتها.

اتسقت هاتان الرغبتان في الاتفاق على مشروع بحثي يتناول البنية الاجتماعية لمدينة الصدر. وقد انشغل في متابعة المشروع ومناقشة بياناته وكيفية توظيفها في تحليل بنية المجتمع المديني -عبر جلسات مستمرة ومكثفة- كل من الدكتور أسامة شبيب، مدير مركز البيدر، والدكتور علاء حميد، عضو مجلس الإدارة في مركز رواق بغداد؛ لذا أتقدم لهما بوافر الشكر والثناء لجهودهما الحثيثة في المتابعة، وحرصهما على إنجاز العمل بصورة تامة، ومراجعته بدقة ودأب كبيرين.

كما لا يمكن إغفال الجهود المبذولة من الزملاء الباحثين الذين أسهموا في إنتاج هذا العمل، كلٌّ من زاويته؛ وأخص بالذكر زميلي الدكتور كرار ناصر، أستاذ الأنثروبولوجيا الاقتصادية في الجامعة المستنصرية، الذي وظف خبرته وكان عوناً في فهم النسق الاقتصادي للمدينة، فضلاً عن مشاركته في الزيارات الميدانية للأسواق ومناقشة العلاقات الاقتصادية فيها. وكذلك الدكتور علي شنان، أستاذ الأنثروبولوجيا الدينية في جامعة بغداد، الذي قدم المشورة والعون سواء بالمصادر أو في فهم السياقات الدينية. والشكر موصول للدكتور مهدي جبار، أستاذ الأنثروبولوجيا، الذي استعنت به كثيراً في مسار المشروع متابعةً ونقاشاً.

أما الزميل الدكتور أحمد قاسم مفتن، متخصص دراسات المنهج في علم الاجتماع بجامعة بغداد، فقد كانت له مساهمة خاصة؛ بدءاً من استماعه المستمر لتطورات المشروع، وصولاً إلى إفادتي بخبرته في التعامل مع البيانات الاستطلاعية المخصصة للثقافة السياسية، إذ كانت آراؤه تختصر المسافات وتحسم الجدل في كيفية التعاطي مع الأرقام الإحصائية.

إنَّ ثمة أصدقاء يستحقون أن يُفرد لهم حيّزٌ خاص من الشكر والعرفان؛ أحدهم كان يراقب العمل ويدفعني نحو الإنجاز عبر قراءة الفصول وتقديم ملحوظاته القيمة، وهو الدكتور حسن سوادي، أستاذ اللسانيات في جامعة واسط. وكذلك الدكتور هاني كنهر، الذي تفضل بتصحيح الكتاب ولغته، وتَحَمَّل برحابة صدر كثرة التعديلات المستمرة من قِبلي.

وفي الختام، أجدد شكري وامتناني لجميع من ورد ذكرهم، والذين

لم يكونوا مجرد داعمين، بل شـركاء حقيقيين في هذا المشروع؛ حيث يحدونـا الأمـل جميعاً في أن يكون هـذا العمل منطلقاً للاسـتمرار في إنجـاز دراسـات اجتماعية معمقة تتناول مدناً عراقية أخرى، سـواء في العاصمة بغداد أو في بقية المحافظات.

فصول الكتاب

يتكـون هذا الكتاب من خمسـة فصـول وخاتمة، يحتوي الفصل الأوّل منـه علـى الإطار النظريّ للدراسـة، الذي يشـتمل على التوجه النظـريّ لعمليات التحول في المجتمع، وطريقة تقبل تلك التحولات سواء في سياق التكيف أو الارتباط بعناصر متغيرة، واتخذت الدراسة فيـه منهجيّـة الأنثروبولوجـي (غريغوري باتيسـون) مُفسّـراً لعمليات التحـول وإجراءاته المجتمعية، واتخذت من مفهـوم «البؤرة الثقافيّة» للعالـم الأنثروبولوجـي (ميلفيل هيرسـكوفيتس) لتكـون أداة البحث الرئيسة للحصول على البيانات في الميدان.

وقد خصص الفصل الثاني إلى (النسـق القرابيّ) وبؤره الثقافية المتمثلة في مجالس العشـائر ولقاء الأقارب، إذ توجهت الدراسة إلى البنـاءات البديلـة التـي أخذت تتبلور داخـل المدينة كبديـل عن البناء الأصليّ في العشـيرة، وأثرها في إعادة الروح لوظيفة العشيرة الرئيسة وهي (الحماية).

وسـلط الفصل الثالث الضوء على (المسـجد) بعـدّه بؤرة ثقافيّة دينيّة وعمليات التحول التي طرأت على تلك البؤرة، سـواء من ناحية

التفريق بين المساجد المحكومة بالزوار المحليين —التي تمثّل بؤرة حقيقية تُمارس فيها العادات الدينيّة والروابط المحليّة بصورة كاملة— وبين المساجد المرتبطة بالشوارع المؤدية إلى نهاية المدينة التي يكون زوارها مختلطين بين أبناء المحلة والعابرين، فضلاً عن ذلك، فإنّ ثلاثية المسجد المتكونة من الخادم والإمام والمصلين تمثّل بناءً جديداً للبنية الدينيّة في مدينة الصدر، تُسيّر من خلالها الروابط الاجتماعيّة والسياسيّة، فضلا عن (الطقس الدينيّ) بعدّه بؤرة مهمّة للجماعة، إذ تمثّل تحولاته جزءاً من الحماية للمحافظة على الطقس والتوجه المركزيّ، ممّا يؤسس لعلاقات جديدة داخل الطقس.

وتضمن الفصل الرابع (السوق) بعدّه البؤرة الثقافية للجانب الاقتصاديّ، وقسّمت الدراسة الأسواق إلى قسمين حسب زمنها: أسواق صباحيّة وأسواق مسائيّة، ولكلّ منها زبائنها ووظيفتها؛ لتكون تلك البؤر الثقافيّة في مجملها مفسرة للمدينة ككّل بقيمها وعاداتها وتحولاتها وتكيفها لتكون قادرة على البقاء كمجتمع محليّ له أدواته التي تساعده على البقاء.

ووقف الفصل الخامس على نظريّة (الثقافة السياسية) للعالمين (غابرييل ألموند وسيدني فيربا) التي تختبر علاقة الأفراد بالنظام السياسيّ من خلال أدوات استعملتها الدراسة على عينة من أفراد المدينة، واستطاعت من خلالها فهم السياقات التي وفرها الجانب الميداني للدراسة. وانتهت الدراسة بخاتمة تضمنت أبرز النتائج التي خلصت إليها.

الخاتمة

تستمر البُنى التقليديّة في مدينة الصدر بأداء وظائفها، إلا أنّ تلك الوظائف في المجتمع المحليّ لم تُؤدَّ كما في الريف، إذ تضعف هذه البُنى بسبب فقدانها لأهمّ أطرافها، وهو سيطرتها على الأفراد، ويتجلى تراجعها في تزاحمها مع تراكيب مختلفة دينيّة وجماعاتية مرتبطة على أساس المصلحة، فضلاً عن بروز زعامات محليّة تمتلك نفوذاً من خلال ارتباطها بالوظائف المحلية، ما ساعدها على أداء أدوار بديلة عن تلك البُنى.

فرضية بقاء البُنى التقليدية في المجتمعات المحليّة وثباتها، وتمسك أفرادها بها كمصدر للحماية، أخضعناها للنقاش وأثبتنا عدم صحتها، إذ تحاول البُنى من داخلها إلى التكيف لتعيد ارتباط الأفراد بها، متخذة من أهداف البُنى التقليدية سبباً لتشكيل البُنى البديلة، فبدلاً من الارتباط الهرمي المتسلسل القائم على رابطة الدم، المتشكل في العشيرة الذي يهدف لحماية أفرادها، إذ يتم التخلي عن العلاقات الشبكيّة المنتجة لروابط محددة للأقرب والأبعد، تنتج بُنى يكون الهدف فيها هو الحماية، إلا أنّها تتخلى عن العلاقات الشبكيّة، ويصبح الارتباط بطريقة أفقيّة يُمثّل تعبيراً (كلهم أقارب)، لتتيح لها الحصول على أكبر عدد من الأفراد، وتحقيق هدف الحماية.

يكشف الجانب التحليليّ من الدراسة وظائفاً ضمنية داخل البُنى القرابيّة والدينيّة التقليديّة فُقدت في البُنى البديلة، منها العناصر القِيَمِية

للضبط، والقائمة على تفضيل مصلحة الجماعة على الأفراد، بينما تتجه البُنى البديلة إلى تغليب الجانب الفرديّ من خلال الروابط الأفقيّة التي تمنع المراقبة الرأسية، إذ إنّ الوظيفة الضمنيّة للارتباط الهيكليّ هي تشكيل عناصر ضبط، فقد تمثّل تلك العلاقة الشبكيّة عناصر مراقبة للأفراد من الأعلى.

حاولت البُنى البديلة معالجة الانشقاق بين اعتزاز الأفراد بالبناء التقليديّ القائم على روح الجماعة، وبين النزوع نحو الفردانيّة؛ ذلك الانشقاق الذي أضعف تشكيلاتهم الأساسيّة وجعلها عاجزة عن القيام بوظائفها الرئيسة.

إنّ ما نستخلصه من التحولات في البؤر الثقافيّة (القرابة والدين) داخل مدينة الصدر، لا يقتصر على تلك البؤر فحسب، بل يتعداه إلى عناصر البُنى التي تمثّلها؛ لأنّ البؤر الثقافية تُعدّ الفضاء الأهمّ للتعبير عن تلك التحولات، وأن عادات المجتمع وتقاليده يجتاحها التغيير من خلال بؤرها الثقافيّة التي تُبرز بدورها أنماطاً سلوكية لم تكن معهودة في الحياة العادية.

ووجدت الدراسة أنّ السر وراء اهتمام الأفراد في مدينة الصدر بـ(السوق) يكمن في أنّه يمثّل بوابة النجاة من الضعف الاقتصاديّ؛ فنتيجة لافتقار المدينة لمصادر العيش الأخرى، فقد بات السوق المصدر الأساسيّ لتأمين احتياجاتهم، ولذا لا يتخلون عنه حتى في أوقات الرخاء المالي، فهو الحامي من هاجس عودة الأزمات مجدداً.

وقد بيّنت الدراسة أن علاقة الأفراد بالنظام السياسي في مدينة

الصدر يمكن توصيفها بأنها علاقة غير منعدمة، وأنها علاقة غير مكتملة؛ إذ يـؤدي الأفـراد جـزءاً مـن أدوارهم تجـاه النظـام وعلاقتهـم بمفهوم (الوطن)، إلا أنّ الشـعور بالتهميش ما يـزال مؤثراً على تلك العلاقة، إذ يشـعر الأفراد أن النظام غيـر مكترث لاحتياجاتهـم، وأن مطالباتهم غير مؤثـرة، هذه العلاقـة المتذبذبة تهـدد باحتمالية التحـول نحو الانفصال التام بين المجتمع والنظام السياسيّ، وفي المقابل تبرز إمكانية تحويلهم إلـى أفراد فاعلين ومشـاركين عبر تلبيـة مطالبهم، لتوليد شـعور حقيقيّ بأنّهم مؤثرون في ذلك النظام.

تمثّل هذه الدراسـة بوابة جديدة لفهم مدينة الصدر وتشكيل بُناها، عبـر دراسـة أنثروبولوجية ميدانية شـاملة لا تقتصر على بنـاء دون غيره؛ بل تسـبر أغوار علاقاتهم وارتباطاتهـم وأهدافهم، فضلاً عن التحولات الجوهرية التي مروا بها.

المراجع

الكتب

١. ادم كوبـر، الثقافـة في التفسـير الانثروبولوجـي، ترجمة صديـق الدملوجي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠١٢.

٢. إكـرام عدننـي، سوسـيولوجيا الديـن والسياسـة عنـد ماكـس فيبـر، منتـدى المعارف، لبنان، ٢٠١٣.

٣. الان برنارد، التاريخ والنظرية في الانثروبولوجيا، ترجمة سيد فارس، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠١٧.

٤. انتونـي غدنز، علم الاجتماع، ترجمـة فايز الصياغ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٥.

٥. ايـف وينكين، انثروبولوجيا التواصل: مـن النظرية الى ميدان البحث، ترجمة خالد عمراني، هيئة البحرين للثقافة والاثار، المنامة، ٢٠١٨.

٦. ايكـه هولتكـراس، قاموس مصطلحـات الاثنولوجيـا والفولوكلـور، ترجمة محمد الجوهري، دار المعارف المصرية، القاهرة، ١٩٧٢.

٧. بودون بوف، المعجم النقدي لعلم الاجتماع، ترجمة سـليم حداد، المؤسسة الجامعية للطباعة والنشر، الجزائر، ١٩٨٦.

٨. بياربونت وميشال إيزار، معجم الاثنولوجيا والانثروبولوجيا، ترجمة مصباح الصمد، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت.

٩. جورج شاربونيه، حوارات مع كلود ليفي شتراوس، ترجمة مي محمود، نون للنشر، الأمارات، ٢٠١٥.

١٠. جون إي جوزيف، أعلام الفكر اللغوي: التقليد الغربي في القرن العشرين، ترجمـة احمد شـاكر الكلابـي، ج٢، دار الكتـاب الجديد، طرابلـس، ليبيا، ٢٠٠٦، ٣٠-٣١.

١١. حنـا بطاطـو، العـراق، الكتـاب الاول، ترجمـة عفيـف الـرزاز، دار الحرية

للنشر، بيروت،٢٠١١.

١٢. دنيس كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ترجمة منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٧، ص٥٩.

١٣. روجيه كايوا، الانسان والمقدس، ترجمة سميرة ريشة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت،٢٠١٠.

١٤. ريتشارد داوسن، بروين كنيث، التنشئة السياسية: دراسة تحليلية، ترجمة مصطفى عبد الله، بنغازي جامعة قارينوس، ط٢، ١٩٩٨.

١٥. رينيه جيرار، العنف والمقدس، ترجمة سميرة ريشا، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٩.

١٦. شارلوت سيمور، سميث، موسوعة علم الانسان: المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية، ترجمة علياء شكري واخرون، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩.

١٧. شاكر مصطفى سليم، قاموس الأنثروبولوجيا: إنكليزي عربي، جامعة الكويت، الكويت، ١٩٨١.

١٨. صادق الاسود، علم الاجتماع السياسي: اسسه وابعاده، جامعة بغداد، كلية العلوم السياسية، ١٩٩٠، بغداد.

١٩. عبد العاطي السيد، علم الاجتماع الحضري، ج ١، دار المسيرة، عمان، ٢٠١١.

٢٠. عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة: المفاهيم والاشكاليات.. من الحداثة الى العولمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٦.

٢١. عدنان صبيح، إمام وخدام: دراسة لسياقات الخطابة الدينية، دار الشؤون الثقافية، وزارة الثقافة والسياحة والاثار العراقية، بغداد، ٢٠٢٣.

٢٢. علي وتوت، الدولة والمجتمع في العراق المعاصر: سوسيولوجيا المؤسسة السياسية في العراق، مركز دراسات المشرق العربي، بيروت، ٢٠٠٨.

٢٣. فاروق مصطفى اسماعيل، الانثروبولوجيا الثقافية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، ١٩٨٠.

٢٤. فالح عبد الجبار، العمامة والافندي: سوسيولوجيا خطاب وحركات الاحتجاج الديني، ترجمة أمجد حسين، منشورات الجمل، بيروت-بغداد، ٢٠١٠.

٢٥. ف-سكينر، تكنلوجيا السلوك الانساني، ترجمة عبد القادر يوسف، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٣٢، الكويت، ١٩٨٠.

٢٦. قاسم المشكور، اسطورة المدن: مدينة الثورة- الصدر حاليا، دار ومكتبة عدنان، بغداد، ٢٠١٦.

٢٧. كريستوف فولف، علم الأناسة: التاريخ والثقافة والفلسفة، ترجمة ابو يعرب المرزوقي، دار كلمة، ابو ظبي، ٢٠٠٩.

٢٨. كلايد كلوكهون: الانسان في المرآة: علاقة الانثروبولوجي بالحياة المعاصرة، ترجمة شاكر مصطفى سليم، منشورات مؤسسة فرانكلين، بغداد، ١٩٦٤.

٢٩. كليفورد غيرتز، تأويل الثقافات، ترجمة محمد بدوي، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٩.

٣٠. لاهاي عبد الحسين، مقدمة في علم الاجتماع، جامعة بغداد، ٢٠٠٨، بغداد.

٣١. لوسي مير، مقدمة في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، ترجمة شاكر مصطفى سليم، دار الشؤون الثقافية، وزارة الثقافة العراقية، بغداد، بلا سنة طبع.

٣٢. محمد الجوهري، الأنثروبولوجيا الاجتماعية: قضايا الموضوع والمنهج، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٤.

٣٣. محمد باقر بن محمد تقي المجلسي، بحار الانوار، مؤسسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٣هـ، ج٧٧.

٣٤. محمد ديلان، سوق مريدي: دراسة أنثروبولوجية، كلية الآداب جامعة بغداد، ٢٠٠٦.

٣٥. مولود زايد الطبيب، التنشئة السياسية ودورها في تنمية المجتمع، المؤسسة العربية الدولية للنشر، عمان، ٢٠٠١.

٣٦. ميلفيل هرسكوفيتز، أسس الانثروبولوجيا الثقافية، ترجمة رباح النفاخ، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق، ١٩٧٣.
٣٧. وليم آوثوايت، قاموس بلاكويل للفكر الاجتماعي الحديث، ترجمة معهد دراسات عراقية، إشراف فالح عبد الجبار، هيئة البحرين للثقافة والآثار، المنامة، ٢٠٢٢.
٣٨. يحيى خير الله زامل، التغير البنائي في مدينة الصدر، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الاداب، ٢٠٠٥.

البحوث

١- إبراهيم المرشيد وآخرون، نحو بنا ومؤشر إحصائي لقياس الثقافة السياسية في البلدان العربية، مجلة سياسات عربية، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، العدد ٤٦ – ٥٦ لعام ٢٠٢٣ .
٢- أبو بكر باقادر، السوق وعالمه: هل هو المفتاح لفهم العالم الإسلاميّ؟ (كليفورد غيرتز)، مجلة الاجتهاد، العدد ٣٤ و٣٥، ١٩٩٧، دار الاجتهاد للأبحاث والنشر، بيروت.
٣- احمد عبد الواحد عبد النبي، المقومات السكانية والاقتصادية للمجتمع وأثرها في تاريخ بغداد المعاصر (١٩٤٠-١٩٦٠)، مجلة التراث العربي، عدد ٤٤، سنة ٢٠٢٠.
٤- جلدي سعد ومبارك الطايعي، أثر تدخلات الفاعل السياسي المنتخب وإشكالية التنمية شمال المغرب، مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، مؤسسة برابدو للخدمات التعليمية، المملكة المتحدة، عدد١٢/ مجلد ٤، ٢٠٢٣.
٥- سليمة بن حسن، مفهوم اقتراب الثقافة السياسية عند غابريال الموند وسيدني فيربا، مجلة حوار المفكر، كلية الحقوق والعلوم السياسية بجامعة محمد خيضر، الجزائر، بسكرة، العدد٢، مجلد١٦، ٢٠٢١.
٦- علاء حميد ادريس، الشيعية كطريقة للحياة: تأملات في الهوية الشيعية بعد ٢٠٠٣، بحث منشور في كتاب شيعة العراق بعد ٢٠٠٣ الرؤى والمسارات، تحرير علاء حميد ومؤيد ال صوينت، دار ومكتبة عدنان، بغداد، ٩١٠٢.

٧- كامل داوود، مقال منشور في مجلة الثقافة الجديدة، عدد كانون الثاني ٢٠٢٥، بعنوان العماريين الى بغداد.

٨- كريم محمد حمزة، تاريخ الاستخدام السياسي للهوية المحلية العشائرية في العراق: تخادم الدولة والمشيخة، مجلة عمران، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، العدد ٩١، ٢٠١٧.

٩- كليفورد غيرتز، الثورة الادماجية: المشاعر الوشائجية والسياسات المدنية في الدول الحديثة، بحث منشور في كتاب مشترك. بعنوان التعدد والاختلاف.

١٠- لطفية طبال، التغير الاجتماعي ودوره في تغير القيم الاجتماعية، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية، العدد الثامن، ٢٠١٢، جامعة سعد دحلب البليدة، الجزائر.

١١- نصر الدين حامد، ابعاد عملية التكيف النفسي والاجتماعيّ، مجلة أبحاث نفسية وتربوية، عدد٣، ٢٠١٠.

١٢- هدير الدناصوري وشيماء علاء الدين، الأسس النظرية والمنهجية لنظرية الماكدونالية عند جورج ريتزر، بحث منشور في مجلة كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، مصر، المجلد ٧١، العدد١٠٥، ص٤ من البحث.

١٣- هشام يوبا ونور الدين غزوان، بنيوية كلود ليفي ستروس: او نحو فونولوجيا الثقافة، مجلة عمران، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، العدد ٢٢، ٢٠١٧.

إنَّ الأصـول الفلّاحيّة لأبنـاء مدينة الصّدر، بما تمتلكـه تلك البيئة مـن قدرة عـلى التّكيّـف، ومرونـة في التّكوين والتّشـكيل، سـمحت بـبروز بنـاءات جديدة هدفهـا حماية أفرادهـا، في حـال ضعفت قدرة البنـاء التّقليديّ عـلى توفير تلك الحماية، وهذا هو الفارق بين الأصول الفلّاحيّـة والأصول البدويّـة؛ إذ يُغيّر البدويّ المـكان ولا يُغيّر البناء؛ لأنَّ البناء يمثّل ثيمته الأساسـيّة، بينما يمتلك البناء لدى الفلّاح قابليّة التّغيّر والتّكيّف؛ لأنَّ المكان ثيمته الأساسيّة.

المؤلف

الاختلاف يولّد الاختلاف

البنى الاجتماعيّة الأوليّة والموازية في مدينة الصدر

ISBN: 978-9922-8133-7-0

9 789922 813370

دار ومكتبة الرواق